﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢ * قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ٢٦٣﴾ [البقرة: 262- 263]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

جاءتِ الآيتان بعد آية التَّمثيل بالحبَّة التي أنبتَتْ سبْعَ سنابِل؛ لبيان أنَّ المَثَلَ المذكورَ له شروطُه وضوابِطُه، وأنَّه غيرُ متروكٍ لأفهامِ المخاطَبين، وأفعالِ المنفقين، بل هو على ميزان الشَّريعة، وعلى دُستور الأخلاق، فجاءتِ الآيتان؛ لبيان ذلك تتميمًا وتكميلًا، وإتباعًا للتَّمثيل البلاغيِّ، بالبيان التَّشريعيّ، وهذا من محاسن المناسبات بين الآيات.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَنّٗا﴾: المنّ[1]: العطاءُ الذي يكون عن غير تعَبٍ ولا نصب، كالمنِّ السّاقط على بني إسرائيل، وأصله مأخوذ من المنين، وهو الحبلُ الأوَّل الدّاخليّ الذي يُشَدُّ عليه حبل آخر، يقالُ له: الكَرَب، فإذا انْقَطع المَنِينُ؛ بَقِيَ الكَرَبُ، فالمنين هو الذي يتلقَّى حِملَ الدِّلاء، ولذلك يُسارع إليه الضّعف والقطعُ، وارتبط لفظ المنِّ بالقطع لهذا، فإنَّ المنين يكثر قطعُه بسبب ما يَعرِض إليه من حِملٍ، فقيل: المنّ: قَطْعُ الخَيْر، وقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾ [فصلت: 8]، أي: غيرُ مَقطوع، واستعمالُ لفظِ المنِّ في قوله تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾، يُراد به: قطع الأجر؛ لأنَّه إبطالٌ للأجر بإظهار ما يجب أن يُخفى، كما أنَّ الحبل المنين يجب أن يبقى خفيًّا غير ظاهر، فإذا انقطع من الدّاخل؛ ظهر أثره في الخارج.

واستُعمِلت هذه الكلمة في معانٍ، منها: الحلوى التي تسْقُط من السّماء، والاعْتِداد،

(1) الخليل، العين. والزجاج، معاني القرآن: 1/138، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (منن)، والأزهري، تهذيب اللغة: (كرب).

والعَطَاء، والقَطْع، أمَّا القطع؛ فواضحٌ في أصله اللغوي، وأمَّا العطاء؛ فلأنَّه صادرٌ عن الله تعالى، ومن أمثلته المنُّ والكمأة، وسُمِّيا كذلك؛ لانعدام الجهد فيهما، والله ﴿يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: 11]، من عباده في كلِّ شَيْءٍ، وهذه من صفاته التي لا تجوزُ لأحدٍ سواه، فإذا صدَرَت عن أحدٍ؛ بطل أجرُه، وانقطع؛ تشبيهًا بالحبل المنين؛ إذا حَمَلَ فوق طاقته، فالمِنَّةُ هي النّعمة الثّقيلة، فإذا كانت من الله تعالى؛ فهي حميدة، وإذا كانت من عباده؛ فهي قبيحة.

2) ﴿أَذَى﴾: الأذى[1]: الشَّيْء تتكرَّهُه، وتنأى عنه، يُقال: بعيرٌ أذٍ وناقةٌ أذِيَة؛ إذا كانا لا يَقَرَّان في مكانٍ واحدٍ من غير وجعٍ، ولكن خلقةً، وكأنَّه يأذى بمكانه، ومنه الآذِيّ: مَوجُ البحر الشديدُ؛ إذ يتحاشاه النَّاس، وينأون عنه.

وكل ما يَصِل من ضررٍ: إمّا في نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيويًّا كان أو أخرويًّا، ويُتحاشى؛ فهو أذًى، قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264]؛ لأنَّ المُتصدَّق عليه يتحاشى سماع المنِّ؛ لأنَّه قهرٌ مؤلم، وقوله تعالى: ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ [النساء: 16] بما يقع عليهما من الأذى التأديبيِّ بحيث ينأيان عن الوقوع في الفاحشة مرّةً أخرى، وقوله: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: 61]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة: 61]، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: 222]، فسمَّى ذلك: أذىً باعتبار الشَّرع، وباعتبار الطِّب على حسب ما يذكره أصحاب هذه الصِّناعة.

3) ﴿خَوْفٌ﴾: الخَوْف[2]: ذُعْرٌ يصيب الإنسان بسبب توقُّع مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونة، أو معلومة، كما أنّ الرّجاء والطمع توقّع محبوب عن أمارة مظنونة، أو معلومة.

وأصل الخَوْف: أديمٌ أَحمرُ، يُقَدُّ منه أمثال السُّيُورِ، فهذا هو أصل الخوف الحسيّ، ثم أصبح يُطلق على انتقاص الأطراف شيئًا فشيئًا. ويضادّ الخوف: الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية، ويُلاحظ في الخوف القلق والاضطراب.

والخوف من الله لا يُراد به ما يخطر بالبال من الرُّعب، بل يُراد به الكفّ عن المعاصي واختيار الطّاعات، ولذلك قيل: لا يعدّ خائفًا من لم يكن للذنوب تاركًا، والخِيفة: الهيئة

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أذي).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مجمل اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خوف).

التي يكون عليها الإنسان من الخوف كالجلسة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠﴾ [هود: 70]. والتخوُّف: ظهورُ الخوفِ في النَّاس، حين تُؤْخَذُ أموالهم وأبدانهم وثمارهم من خافاتها، أي: من جوانبها شَيْئًا فشيئًا، ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٤٧﴾ [النحل: 47].

فهو انتقاص بالقطع من الأطراف، وعليه مدار الكلمة، فإنَّ الخوف شعورٌ يَعْتري الإنسانَ كراهة أن ينقص منه شيءٌ ما، كالأنفس، والتّجارات، والثّمار، والأمن، والصّحة، فالنَّقصُ وذهاب الأطراف حتَّى تتلاشى هو أصل هذه الكلمة.

4) ﴿يَحۡزَنُونَ﴾: الحزن[1]: شعورٌ يعتري النَّفسَ بسبب غمٍّ قاسٍ على أمر قد فات غالباً، وبسببه تضعفُ القريحةُ، ويخفُتُ نورُ العمل، ويقابِلُه الفرحُ.

وفيه لُغتان: الحَزَن، والحُزْن، وأصلُه الحسِّيُّ مأخوذٌ من الغليظِ من الأرضِ الذي فيه خُشونَةٌ، فالأرضُ الغليظةُ الخَشِنَة، تُضْعِفُ مسيرَ من يسلُكُها، وتزيد من شقائِه ونَصَبه، فتورِثُه الهمَّ؛ لذلك كثُر عند العربِ إضافةُ الحزنِ إلى الأماكن والقبائل؛ إذا كانت وَعِرَةً، ويُقال للأبناء: الحُزانَة؛ لأنَّ الآباءَ يتحزَّنون لأمرِهم.

وقد استُعمل الحزن في القرآن الكريم؛ لما يُصيب الإنسانَ من خشونةٍ في النَّفس لما ينزِلُ عليه من الغمّ، قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾ [فاطر: 34]، وقال: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا﴾ [التوبة: 92]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86]، وغالبُ استعماله فيما مضى، ويُستعمل فيما يُستقبل فيما كان توقُّعُه حتميًّا؛ فيُعامل معاملةَ الماضي، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ﴾ [يوسف: 13]؛ لأنَّه بذهابِهم به سيقعُ الحزنُ في قلبِه على فِراقِه بذكره يوسفَ عليه السلام، ووقع التَّعليلُ لهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ [آل عمران: 153]، فهو - وإن جاءَ فيما يُستقبلُ - لكنَّه محمولٌ على ما مضى.

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مجمل اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حزن).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أثنى اللّٰه على المنفقين أموالَهم في سبيل اللّٰه: في الجهاد وأنواع الخير، بما لهم من الأجر المادّيّ، والمعنويّ بنفي الخوف عليهم فيما يستقبلونه من أمر الآخرة، والحزن على شيء فاتهم في هذه الدنيا، وشرطت في قبول الإنفاق أن يخلو من إتباعِ ما أنفقوا من الخيرات منًّا على مَن أعطَوه، ومِنْ أذىً بقول أو فِعْلٍ يشعره بالتفضُّل عليه، فاجتمع فيها مدحٌ وثناء على المنفقين، وشرطٌ في قبول صَدَقاتِهم، وبيانُ جزائهم، ثمَّ جرتِ الآيةُ التَّالية مَجرى القاعدة، بأنْ: كلامٌ طيب يُرَدُّ به السائل، وعفوٌ عما بَدَر منه مِن إلحاحٍ في السؤال، خير من صدقة يتبعها من المتصدق أذى وإساءة؛ وذلك للإجابة عمَّا قد ينقدحُ في ذهْنِ بعضِ المخاطَبين عن حال من يُتبع صدَقَتَه منًّا وأذًى؟

وخُتمت بأنَّ اللّٰه غنيٌّ عن صدقات العباد، حليمٌ لا يعاجلهم بالعقوبة؛ لتربية النَّفس بما يُفيضه لفظ الجلالة، واختير اسم اللّٰه الغني؛ ليتحلَّى النَّاس به، ويعلموا أنَّه سبحانه عن صدقاتهم غنيٌّ، واسمُ اللّٰه الحليم؛ ليعلم النَّاس أنَّه بهم حليم؛ وإنْ بخِلوا بأموالِهم.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

وجه الفصل بيان كيفيّة الإنفاق في سبيل الله

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ جملة مبتدأة جيء بها لبيان كيفية الإنفاق الذي بين فضله بالأجر الجزيل في جزائه وثوابه؛ ولذا ترك العاطف[1]. ولذلك " أتى به غير معطوف لأنه في معنى التفسير للأول فعلى هذا يكون خبر مبتدإ مقدر، أي: هم الذين ينفقون أموالهم"[2].

وجه الفصل أن تكون الآية كلها وصفاً للإنفاق في سبيل الله

ويجوز أن تكون الآية كلها وصفاً للإنفاق في سبيل اللّٰه؛ وبيان ذلك أن حق المنفق في سبيل اللّٰه أن تطيب به نفسه، وأن لا تتعقبه بالمن وأن لا تشفق من فقر تناله من بعد، بل تثق بكفاية اللّٰه - ﷻ -،

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/552.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/319.

ولا يحزنون إن يناله فقر، وبَيَّنَ تعالى أن ما تقدم ذكره من مجازاة واحد بسبع مائة هو لمن هذا وصفه[1].

فائدةُ تكرار قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أعادتِ الآيةُ جملةَ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ "إظهارًا للاهتمام بهذه الصلة"[2]. وللانتقال من الثَّناء على المنفقين في سياق التَّمثيل، إلى الثَّناء عليهم في سياق التَّشريع، فكان التَّمثيل توطئةً للتَّشريع؛ فإنْ علِمَ المنفِقُ أنَّه سينالُ ثناءً عظيمًا وأجرًا جزيلًا بسبب إنفاقِه في سبيل الله؛ فإنَّه سيتطلَّع إلى الاستزادة والاستكثار، وإذا ما طَمِحَ، وطَمِعَ في الأجر والثّواب؛ بُيِّنَ له شرطُ ذلك وتوابعُه، فأتى بالغاية المرجوَّة، وهذا أرجى في العملِ الجادّ.

بيانُ الإعادة إظهار الاهتمام، بالانتقال من الثَّناء على المنفقين في سياق التَّمثيل، إلى الثَّناء عليهم في سياق التَّشريع

نوعُ العَطْفِ بحَرْفِ التَّراخي:

عُطِفَ قولُهُ: ﴿ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ﴾ بحرفِ التَّراخي مع أنَّ الظَّاهِرَ أَنْ يُعْطَفَ بِالْوَاوِ؛ لِإِظْهَارِ التَّفَاوُتِ بَيْنَ أنواعِ الصَّدقات، فتكون ثمَّ للتَّراخي الرُّتْبي لا للزَّمانيّ، رفعًا لِرُتْبَةِ تَرْكِ المَنِّ والْأَذَى عَلَى رُتْبَةِ الصَّدَقَةِ المقترنةِ بالمنِّ والأذى؛ لِأَنَّ الْعَطَاءَ قَدْ يَصْدُرُ عَنْ كَرَمِ النَّفْسِ وَحُبِّ الْمَحْمَدَةِ، فَلِلنُّفُوسِ حَظٌّ فِيهِ مَعَ حَظِّ الْمُعْطَى، بِخِلَافِ تَرْكِ المنِّ وَالْأَذَى؛ فَلَا حَظَّ فِيهِ لنَفس الْمُعْطِي، فإنّ الْأَكْثَر يميلون إِلَى التبجّح والتَّطاول على الْمُعْطى؛ لذلك أتى بحرف ﴿ثُمَّ﴾ المفيدِ للتَّراخي الرُّتْبي؛ إذِ الإنفاقُ في سبيلِ الله تعالى معَ تركِ المَنِّ والأذَى مما يعُزُّ حصولُه، كأنَّه قال: أنفقْ، ثمَّ اثبُتْ على تركِ المنِّ والأذى؛ لتنالَ الأجرَ العظيم[3].

وجه العطف بـ (ثم) بيانُ التَّفاوُتِ بَيْنَ أنواعِ الصَّدقاتِ، وتعيينُ شرْطِ المقبولِ منها

"إنه سبحانه وتعالى عطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 5/428.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/42.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/311، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/42.

يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ فلماذا كان العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ دون الفاء؟ فهل مقتضى هذا أنه يسوغ المن والأذى عند العطاء، ولا يسوغ بعده بفترة من الزمان؟ والجواب عن ذلك أن التعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ أفاد النفي المطلق على عدم إتّباع الإنفاق بالمنّ والأذى في زمن قريب أو بعيد؛ لأن المنفق في غالب الأحوال يكون عند إنفاقه في حال حماسية نفسية تدفعه إلى الإنفاق، فما يفكر في مَنٍّ ولا أذىً وقته، وإن خطر له ذلك فقد يمنعه من الإعطاء، إنما يكون التفكير في المَن أو الأذى بعد ذهاب فورة الخير في النفس. فإذا كان الله سبحانه قد صدَّر النفي بـ ﴿ثُمَّ﴾ فليحثَّ المنفقَ على الاستمرار على نزعة الخير، ولا ينكص على عقبيه، فيفسد نيته بأذى يؤذي به من أجرى الخير على يديه، أو من يمن به على من أعطاه"[1].

أفاد التعبير بـ (ثُمَّ) النفي المطلق على عدم إتْبَاعِ الإنفاق بالمنّ والأذى في زمن قريب أو بعيد

قال ابن عرفة: "عطفه بـ ﴿ثُمَّ﴾ إما لبعد ما بين المنزلتين أو للمهلة حقيقة ويكون فيه إشارة إلى أنهم يمنون بنفقة طال أمدها، وداموا عليها؛ فأحرى أنْ لا يَمُنُّوا بنفس الإنفاق[2].

فائدَةُ أسْلوبِ الشَّرطِ بحرفِ التَّراخي الرُّتْبيّ:

الأساليب القرآنية المفيدة لأنواعٍ من المعاني تتوزَّعُ القرآنَ كالدُّرِّ المنثورِ بعناية فائقةٍ؛ للفتِ الأنظار لمعانٍ يغفل عنها النَّاسُ عادةً، وهي جوهرُ المطلوبِ، وأساسُ المقصود، ومن تلك الأساليب أسلوبُ الشَّرط بحرفِ التَّراخي الرُّتْبي، كهذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾، فإنَّ شرطَ قَبولِ النَّفقةِ هو خُلُوُّها من المنِّ والأذى، وقد أتى لهذه الآية نظائر في القرآن الكريم، من مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ

أسلوب الشرط بـ (ثم) أوقعُ في النَّفسِ، وأدعى للقَبُول؛ لتقريرِه المطلوبَ بالإخبارِ عمَّا يجبُ أنْ يكونَ عليه الأمرُ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/977.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/319.

فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ [النساء: 65]، فإنَّ شرطَ القبول بحكم رسول الله ﷺ هو خلوُّ النَّفس من الحَرَج، والتَّسليمُ له، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ [فصلت: 30]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ [الأحقاف: 13]، فإنَّ الاكتفاءَ بالقولِ دونَ الاستقامةِ عليه لا يحقِّقُ شرطَ الإيمانِ الشَّرعيِّ، وغيرُ ذلك من الآياتِ الدَّالة على أنَّ تتميمَ الأحكامِ بِشُروطِها يكونُ بحرفِ التَّراخي الرُّتبي، وفائدةُ هذا الأسلوب: أنَّه أوقعُ في النَّفسِ من أساليبِ الشَّرطِ المعهودَة، وأدعى في القَبُول، حيث إنَّه يقرِّر المطلوبَ بالإخبارِ عمَّا يجبُ أنْ يكونَ عليه الأمرُ، فهو يُخبر عن أمرٍ واقعيّ، لا تصوّريّ، وهو ما يجعل الإذعانَ للمطلوب أمكنَ في ذهنِ المُخاطَب. قال القاسمي: "اختاروا في أكثر الأحوال تكرار تلك المسائل بعبارة جديدة وأسلوب غريب ليكون أوقع في النفس وألذّ في الأذهان دون التكرار بلفظ واحد"[1].

سِرُّ العدول عنِ الإنشاءِ إلى الإخبار:

الاكتفاءُ بالإشارةِ دون العبارةِ، دَيْدَنُ العمَّال في سبيل الله

ممَّا يقتضيه مقامُ بيان شروطِ قبول النَّفقة عند الله تعالى، أن تُذكر بأسلوب الأمر الإنشائيّ؛ إذِ السِّياقُ سياقٌ تشريعيّ، لكنَّ النَّظم القرآنيَّ عَدَلَ عنِ الأمر المباشر؛ فلم يقُل: (ولا تُتبعوا نفقاتكم منًّا ولا أذًى)، إلى أسلوب الإخبارِ على سبيل المدح والثَّناء، ذلك أنَّ مِهمازَ المُنفقين أموالَهم في سبيل الله هو الإخبارُ بالثَّناء الجميل، لا الأمرُ بالنَّظم الجزيل، إذْ تغمُرُهُم روحُ الإشارةِ دون ظاهرِ العبارة، ويكفي المنفقَ إعلامُه بالمراد؛ ليتحقَّق مقصودُ الخطاب.

فائدةُ التَّعبير بصيغةِ المضارع:

بيانُ شرطِ قبول الصَّدقات في المستقبل

آثر النَّظم الكريمُ صيغةَ المضارعِ على غيرها، فقال: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾، ولم يقل: (ثمَّ لم يُتبعوا ما أنفقوا منًّا ولا أذًى)؛ للدّلالة على شرطِ قبول الصَّدقات، هو بالاستمرار على

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 1/176.

الحفاظِ عليها ممَّا يُفسِدُها، فالمنفقُ على خطرٍ عظيم قد يتطرَّقُ في أيِّ لحظة ما يُفسِدُ عليه صدقته، فكانت صيغةُ المضارع كاشفةً عنِ المطلوب، وهذا من التَّحذير الضمنيِّ في القرآن الكريم، فبدل أن يُقال: فليحذرِ المنفقون من المنِّ والأذى، جاء بصيغة المضارع؛ ليقرِّر المطلوب بإيثار صيغةٍ على أخرى.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّة:

تـصـويـرُ حـالِ المنفق، وأثرُه في المحافَظةِ على حياةِ نفقتِه

في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ استعارةٌ بليغة، حيث شبَّه النَّفقات بالفريسةِ الضَّعيفة القابلةِ للسُّقوط، وشبَّه المنَّ والأذى بالتَّابع القويّ المفترِس، فالنَّفقةُ تسيرُ في سبيل الله تعالى، فإنْ لم يتبعْها ما يفترِسُها؛ وَصَلَتْ، وإن كانتِ الثَّانيةَ؛ فهي المنْقطِعَةُ عن سَبيلِ الله، وذلك تنبيهًا على أنَّ النَّفقات تحتاجُ إلى مزيدِ رعايةٍ وعنايةٍ، وأنَّها إنْ تُرِكَتْ - لتتبعَها أقوالُ المنِّ، وإشاراتُ الأذى - فإنَّها تضْعُفُ عنِ الاستمراريَّة والإثمار، فتقع فريسةً لأنياب مفترسِها، فلا ينتفع بنتاجِها في قابل الأيَّام؛ لتحصيلِه على منفعتها الدّنيويَّة العاجلة، وتناسيه منفعتها الأخرويّة الآجلة، وهي استعارةٌ مكنيَّة، فائدَتُها تصويرُ حالِ النَّفقة، وأنَّها مرهونَةٌ بحذْقِ صاحبِها وخُلُقه.

مناسبَةُ فنِّ الاستعارةِ للتَّمثيل:

اتـبـعَ المـثـال بـالاسـتـعـارة لبيان أنّ شرطَ مضاعفة النفقة المعاملة كالزَّرع

لَمَّا نبَّه في الآية السَّابقة على مثالٍ مختصٍّ بالزِّراعة؛ أتبعه باستعارةٍ تبيِّن أنَّ النَّفقة كي تتضاعف، يجبُ أنْ تُعامَلَ معاملةَ الزَّرع، لا معاملةَ الصَّيد، فإنَّ الصَّيدَ يستهلِكُ، والزَّرعَ يستبقي، ففيها تفضيلُ مطلقِ الزَّرع على مطلقِ الصَّيد، فحسُنتِ الاستعارةُ في ذاتِها وارتباطها، وهي إشارةٌ بيانيَّةٌ لطيفةٌ، تتَّسقُ مع صريح العَقْلِ، وفِقْهِ المعيشةِ، وطبيعةِ الحال.

إيثارُ الاسمِ المَوصُول على الظَّاهر:

وجـهُ التعبير بـ(ما) الدّلالةُ على قصدِ العموم وتعيينه

آثرَ النَّظْمُ الاسمَ الموصولَ على الظَّاهر، فقال: ﴿مَآ أَنفَقُواْ﴾، ولم يقل: (نفقاتهم)؛ للدّلالة على قصدِ العموم وتعيينه، لاسيَّما في كونه أتى بـ (ما) التي قوَّت معنى العموم، فيُدفعُ توهّمُ أنَّ المرادَ نفقةٌ من النَّفقات، ولبيانِ أنَّ النفقةَ مهما كانتْ صغيرةً أو كبيرةً؛ فإنَّها تتأثَّر بالمنِّ والأذى.

السرُّ في تكرار (لا):

تكرار (لا) إشارة إلى السَّلب الكلّي للأذى، توكيدًا للنَّفي

كرَّر اللّه سبحانه وتعالى النفي بـ (لا)، في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾؛ للإشَارَة إلَى السَّلب الكلّي بملاحظة النفي أولًا ثم العطف ثانيًا[1]، و" لتأكيد النفي، بألا يصدر عنهم أي نوع من أنواع الأذى، فلا يكون مَنٌّ، ولا شبهةُ منٍّ، ولا أذى، سواء أكان أذى عن قرب أو بعد؛ حتى لقد قال بعض الصالحين: (لئن ظننت أن سلامك يثقل على من أنفقت عليه تريد وجه اللّه فلا تسلم عليه)"[2]. قال العمادي: "وتوسيطُ كلمة لا للدَلالة على شمول النفي لإتباع كل واحدٍ منهما، وثم لإظهار علوِّ رتبة المعطوف"[3].

نُكتةُ اقتران (المنّ) بـ (الأذى):

وجـه الاقـتران الجـمـع بين الخـصـوص والعموم ليشمل كلَّ ما قد يخطر في الذِّهن ممَّا قد يـؤذي المتصدَّق عليه

قرنت جملةُ ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ (المنَّ) بـ (الأذى)، ولم تكتَفِ بأحدهما عنِ الآخر؛ لأنَّ (المنَّ) نصٌّ في الأقوال الصَّريحة؛ فله دلالة الخصوص، و (الأذى) لفظٌ عامٌّ يُراد منه كلُّ ما يُؤذي المُتصدَّق عليه، من قولٍ، أو فعلٍ، أو إشارةٍ؛ فله دلالة العموم، والجمع بين الدّلالتين يشمل كلَّ ما قد يخطر في الذِّهن ممَّا قد يؤذي المتصدَّق عليه. قال ابن عرفة: "وتقدم لنا سؤال وهو

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 5/428.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/977.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.

أنه لا يلزم من نفي الأخص نفي الأعم بل العكس، فالمنّ أعم من الأذى فإذا لم يمنّوا فأحرى أن لا يسبّوا عليها. وأجيب بأن الإنسان قد يشكو بإعطائه النفقة لغيره ويذم معه ولا يمن عليه لأنه إذا رآه يستحيي منه فلا يمن عليه، فقال: المن على المعطي يكون بمحضره وفي غيبته. قال: وإنما عادتهم يجيبون بأن سبب المن أخف من سبب الأذى، فإنهم اعتبروا الفاعل ونحن نعتبر المفعول. فنقول: سبب المن مجرد بذل المال للفقير فقط، وأما الأذية والتشكي والسب فما يصدر إلا عن موجب وهو إذاية المعطي للفاعل ونحو ذلك. فلا يلزم من نفي المنّ نفي الأذى"[1].

تقديمُ (المنّ) وفائدةُ ذكرِه:

قُـدِّمَ المـنّ؛ لكـثرةِ وقـوعِـه مـن المتَـصدِّق، وتـحـذيـرًا من الـوقـوع فيما يكثُر بين النَّاس

لفظُ الأذى أعمُّ من المنِّ، فهو "يشْمَل المنَّ وغيرَه، ونَصَّ على المنِّ، وقُدِّم؛ لكثرةِ وقوعِه من المتَصدِّق"[2]؛ وتحذيرًا من الوقوع فيما يكثُر بين النَّاس، ويُمحِقُ الأجرَ عنِ النَّاس، ذلك أنَّ المتصدِّق يتساهل في المنِّ ما لا يتساهل في الأذى؛ لأنَّه يقع موقعَ التَّسرية عنِ النَّفس الشَّحيحة، ويخفِّفُ من ندَم الإنفاق بعد وقوعه، فيَسْتَعِرُ فؤادُه بما لا منتهى من ورائه؛ إذِ المالُ يَهْلَك، والكلامُ يُهلِك.

علّة تنكير ﴿مَنًّا﴾ و﴿أَذًى﴾:

وجـه التـنـكـير تـقـلـيـل المـنّ، وتحقير الأذى

وتنكير المن والأذى للتقليل والتحقير أي: لا يتبعون مَنًّا قليلًا ولا أذى حقيرًا فضلًا عن كثير وعظيم[3].

فائدةُ تأكيدِ الخبرِ بتقديم ما حقُّه التأخير:

في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ تقديمُ ما حقُّه التَّأخير، وفي ذلك فائدةُ توكيد الخبر، وتشريفه ورعايةٌ لحالهم،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/320.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/659.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 5/428.

وإكسابهم الطَّمأنينة، فإنَّ وقعَ ﴿لَّهُمْ﴾ الصَّادرة عن الله تعالى هي أعظم بُشرى[1].

بيان الإضافة في قولهم: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾:

أفـادت الإضافة الاستحقاق أي أجرهـم اللائـق بهم

معنى اللام في ﴿لَّهُمْ﴾ الاستحقاق، وأفادت الإضافة في قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ الاستحقاق أي أجرهم اللائق بهم فواحد يقل أجره وواحد يكثر وآخر في مادة التوسط بحسب عمله ونفقته[2]، قال أبو زهرة: "وقال سبحانه: ﴿لَّهُمْ﴾، ولم يقُلْ مثلا: (أعطيهم) - ولكلام الله تعالى المثل الأعلى - للإشارة إلى أنه كان لهم بنياتهم، واستحقوه باحتسابهم، وليعلمهم كيف يكون العطاء من غير أجر"[3].

توكيدُ الجملةِ بالإخبارِ بالاسميَّة:

توكيـد الجملة دليلٌ ثبات الأجر لهم

جاء الخبرُ في قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ جملةً اسميَّة، مفيدًا التَّوكيد، فهو أجرٌ ثابت لهم؛ إن لم يُبطلوا صدقاتهم بالمنِّ والأذى.

اقترانُ الأجر الماديِّ بالأجر المعنويِّ:

أفـاد الاقـتران تأكيد الإنفاق، وتـشـريـف المنفقين

أفاد قولُه تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مزيدَ تشريف للمنفقين، بعد ذكر الأجر الماديّ، فإنَّ الأجر عندما يكون عند الله تعالى يكون أجرًا مضاعفًا، فهو أجرٌ في ذاته، وكونه عند الله أجرٌ فوق أجرٍ. قال العمادي: وفي " تقييدِ الأجر بقوله عِندَ رَبّهِمْ من التأكيد والتشريفِ ما لا يخفى"[4].

نكتة تخلية الخبر من الفاء:

وتخليةُ الخبر ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ "عن الفاء المفيدة لسببيةِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/320.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/976.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.

ما قبلَها لما بعدَها للإيذانِ بأن ترتّبَ الأجر على ما ذُكر من الإنفاق وتركَ إتباعِ المن والأذى أمرٌ بَيِّنٌ لا يحتاجُ إلى التَّصريحِ بالسببية، وأما إبهام أنهم أهلٌ لذلك وإن لم يفعلوا فكيف بهم إذا فعلوا؛ فيأباه مقامُ الترغيب في الفعل والحث عليه"[1].

الاستغناء عن الفاء للإيذانِ بأن ترتبَ الأجر، وتركَ إتباعِ المنّ والأذى أمرٌ بيّن لا يحتاجُ إلى التَّصريحِ بالسببية

بيان المتشابه اللفظي:

جرد الخبر هنا عن الفاء فقال: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وقرَنَهُ بالفاء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 274] فإن الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف تُفهم معنى الشرط والجزاء وأنّه مستحقٌّ بما تضمَّنه المبتدأ من الصلة أو الصفة، فلما كان هنا يقتضي بيان حصْرِ المستحقّ للجزاء دون غيره جرَّد الخبر عن الفاء؛ فإنَّ المعنى أنَّ الذي يُنفق ماله لله، ولا يمنّ ولا يؤذي هو الذي يستحق الأجر المذكور لا الذي ينفق لغير الله، ويمنّ ويؤذي بنفقته، فليس المقام مقام شرط وجزاء، بل مقام بيان للمستحق دون غيره.

ليس المقام هنا مقام شرط وجزاء، بل مقام بيان للمستحقّ فلم يأتِ بالفاء

وفي آية البقرة الأخرى ذكر الإنفاق بالليل والنهار سرًّا وعلانية، فذكر عموم الأوقات، وعموم الأحوال فأتى بالفاء في الخبر ليدل على أن الإنفاق في أي وقت وجد من ليل أو نهار وعلى أي حالة وجد من سر وعلانية، فإنه سبب الجزاء على كل حال؛ فليبادر إليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار، ولا نفقة النهار إلى الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر، ولا بنفقة السر وقت العلانية، فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت سبب لأجره وثوابه[2].

وأتى بالفاء في الخبر في آية [البقرة 274] ليدل على الإنفاق في عموم الأوقات، والأحوال؛ فإنه سبب الجزاء على كل حال فليبادر إليه العبد

لما كان المراد هنا إنفاقًا خاصًا على وجه شبيه بحسنة موصوفة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.
(2) ابن القيم، التفسير القيم: ص: 160.

وجـــه دخـــول الـفـاء تحقيق الارتـبـــاط من عدمه

بهذه الصفة وأكدت خصوصية سلامته من المن والأذى؛ كان ترتيب الأجر عليه كالمعلوم بالبديهة وكالمستفاد من اللفظ فلم يحتج إلى ما يحقق الارتباط. ولما قصد عند قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾ [البقرة: 274] الإخبار بأن مطلق الإنفاق في سبيل الله يلزمه الأجر قلّ أو كثر دخلت الفاء تحقيقًا للارتباط[1].

إيثارُ عنوانِ الرُّبوبيّة في الذِّكر:

إيـثـارُ الربوبيّة لمناسبته سياق الـتـنـمـيـة، والمضاعفة

لَمَّا كان السِّياقُ مختصًّا بالحديثِ عن تنميةِ الحبَّة ومضاعفتها؛ ناسَبَ ذلك ذكرُ الرُّبوبيّة؛ لاختصاصِها بمعاني الخلقِ والإيجادِ والتَّربية، وفيه إقناعُ المخاطَبِ بدلالة الألفاظ، كأنَّه قال: من ربَّى هؤلاء أربى لهم نفقاتهم.

ظاهرةُ تلازمِ نفيِ الخوفِ بنفي الحزن في القرآن الكريم:

في تـلازم نـفـي الـخـوفِ بنفي الـحـزن حـثٌّ على تدبُّر إحدى الـنِّـعـم الـتـي لا تـكـون إلا للمؤمنين، وهي نعمةٌ عزيزة في ذاتها

اقترن نفيُ الخوف بنفي الحزن في القرآن الكريم، فيما يقرب من أربعةَ عشَرَ مَوْضِعًا، جاء جميعُها بذكر الخَوْف بالاسم الظَّاهر، وذكرِ الحزنِ بصيغة الفعل المضارع، في حقل مدح المؤمنين، سواءٌ في الدُّنيا أم في الآخرة، وهذه الظَّاهرة تسترعي انتباهَ القارئ، فهي تحثُّه على تدبُّر إحدى النِّعم التي لا تكون إلا للمؤمنين، وهي نعمةٌ عزيزة في ذاتها، نادرةٌ في حالها، بريقةٌ وضَّاءة في وجه طالبها، حديقةٌ غنَّاء في نفس صاحبِها، ولا يكادُ يسْلَمُ من غَصَّةِ الشُّعور بالخوف، واستحضار الحُزن أحدٌ من العالمين، وقد استعاذ ﷺ منهما، فقال: "اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ"[2]، مخافةَ أن تصيباه، ومن تلك الآيات الواردة في القرآن الكريم في تلازم نفي الخَوْف بنفي الحزن:

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/320.
(2) صحيح البخاري، حديث رقم: (2893).

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: 38]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: 62]، وقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: 112]، وقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران: 170]، وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام: 48]، وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: 62]، وقوله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف: 68].

سِرُّ تلازُمِ نفيِ الخَوْفِ بنفيِ الحُزْن:

إنَّ التَّخلُّص من الخَوْفِ بنفيِ الحُزْن على الدَّوام مجلَبَةٌ للسُّرور على الدَّوام

لَمَّا اجتمع الخوفُ والحُزْن على سلبِ الطَّمأنينة عن صاحبها، وورَّثا الجَزَعَ والاضطرابَ، كانا كفكَّيْ مفترسٍ كاسرٍ على رَقَبَة الفريسة، فإنْ تخلَّصَتِ الفريسةُ من فكٍّ لم تنجُ من الآخر، فكان نفيُهما من أعظمِ النِّعَم، ودفعُهما من أجلِّ المِنَن، فإنَّ التَّخلُّص منهما على الدَّوام مجلَبَةٌ للسُّرور على الدَّوام، وهذا لا يكون إلا بإذن المولى جلَّ في علاه، فكان الوعد بذلك ترغيبًا معنويًّا، بعد ذكر الأجر الماديّ.

علّة تخصيص النفي بالخوف دون الخائفين:

الخوف أمر نفسي، وقد يكون من غير مخوِّف

وقد نفَى سبحانه وتعالى الخوف، ولم يقل: (لَا يخافون)؛ لأن الخوف أمر نفسي، وقد يكون من غير مخوِّف، وتكون الخشية والخوف من شأن المؤمن شعورًا بتحمل التبعة؛ ولذا نفَى سبحانه الخوف أي الأمر المخوِّف، أي لَا ينزل بهم أمر من شأنه أن يخافوه،

ولم ينف الخشية النفسية في ذاتها؛ إذ الحال النفسية من قوة الإحساس، أما الحزن وهو الهمّ الذي يصيب القلب فهو منفي في كل صورة ولا يصح أن يكون حالا من حالات الإيمان[1].

سِرُّ التَّعبير بالاسم الظَّاهر عن الخوف وبالمضارعِ عنِ الحزنِ:

تعلّق الخوف بالمستقبل يقتضي فعل التجدّد، وتعلّق الحزن بالماضي يقتضي فعل الثبوت

جاء التَّعبير عن نفيِ الخوفِ بالاسم الظَّاهر، فلم يَقُل: (ولا هم يخافون)، كما قال: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وهذا في القرآنِ كلِّه، لم يخرج عن ذلك استثناءٌ واحد، ذلك أنَّ الخَوْفَ، إنْ دَخَل جَوْفَ الإنسانِ؛ تمكَّنَ منه، وأخَذَ منه سكينتَه وطمأنينتَه، وشلَّ حركتَه، ولم يفارقْه ما لم تُفارِق أسبابُه ودواعيه فكرَ الإنسان، فهو دائِمٌ ثابتٌ لا ينقلبُ عن قلبِ الخائف، بخلاف الحُزنِ؛ فإنَّه يغيب، ويحضر، فهو في حالةِ تجدُّدٍ على قلبِ المحزُونِ، بحسب تجدُّد ذكريات الماضي، فكان نفي تجدُّد الحزن بليغًا، كأنَّه قال: لن يحزنوا، فأفاد في معناه ما أفاده التَّعبيرُ بالاسم، فالتَّعبيرُ عن نفيِ كلِّ شعورٍ مُناسِبٌ لمعناه وواقعِه. قال ابن عرفة: "الخوف يتعلّق بالمستقبل فالمناسب فيه أن يكون الفعل المقتضي للتجدّد، والحزن يتعلق بالماضي فالمناسب أن يكون بالاسم المقتضي للثبوت والتحقيق"[2].

وجهُ ترتُّبُ الأجْرِ المعنويّ على المادّي:

ترتُّبُ الأجرِ المعنويّ على المادّي زيادةٌ في الإكرام، وتعظيمٌ لشأن أهلِه

بعد أن ذكرتِ الآيةُ ما للمنفقين في سبيل الله تعالى من الأجر الماديّ إثباتًا؛ ذكرتِ الأجرَ المعنويَّ نفيًا، ورتَّبتِ الأجرَ على الأجرِ؛ زيادةً في الإكرام، وتعظيمًا لشأن أهلِ الإكرام، فكما أنَّ الانتفاع بالحبَّة يكون مادّيًا؛ فإنَّ النَّظرَ إليها وترقُّبَ نِتاجِها هو أجرٌ معنويّ، وهذا من محاسن الوعد بالأجر بعد التّمثيل له، فإنْ لم يفهمِ المخاطَبُ مضمون التَّمثيل؛ فَهِمَ صريح العبارة.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/976.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/320.

نكتة النَّفيِ المؤَكَّدُ في الحُزْن دُونَ الخَوْف:

أُكِّد نفيُ الحُزنِ بضمير الفصْل؛ لأنَّ ماضي الدُّنيا المليءَ بالأحزان يُهدِّدُ القلوبَ، وممَّا لا يُتصوَّر ذهابُه بالكليَّة، فوقع نفيُه موقعَ الشَّكِّ، فكان تأكيدُه مناسبًا ولائقًا بالمقام، وليس كذلك أمرُ الخَوْف، فإنَّه متعلِّقٌ بالزَّمن المستقبل، فهو وعدٌ ضمنيٌّ أنْ لا يقعَ للإنسانِ ما يُخيفُه، فلم يحتجْ إلى النَّفي كما هو الأمرُ في نفيِ الحُزْن.

وقع نفيُ الأحزان موقعَ الشَّكِّ؛ لأنَّ ماضي الدُّنيا المليءَ بالأحزان لا يُتصوَّر ذهابُه بالكليَّة فكان تأكيدُه مناسبًا للمقام

العَلاقَةُ بين الآيتينِ تمهيدٌ وتقعِيد:

مهَّدَتِ الآيةُ السَّابقة إلى المعنى الواردِ في قوله تعالى: ﴿*قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾؛ إذْ أصَّلت لقاعدةٍ في النَّفقة، وهي: تركُ الصَّدَقة خيرٌ منها عند اقترانِها بالمنِّ والأذى، فكانتِ الآيةُ الأولى تمهيدًا، والثّانيةُ تقعيدًا. فـ" الجملة مستأنفةٌ مقرِّرة لاعتبار ترك إتباعِ المن والأذى"[1].

أصَّلت الآيةُ لقاعدةٍ في النَّفقة، وهي تركُ الصَّدَقة خيرٌ منها عند اقترانِها بالمنِّ والأذى

بديع فن التمثيل:

في قوله تعالى: ﴿*قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ فنُّ التمثيل؛ لأنه قولٌ خرج مخرج المثل السائر الذي يستدعيه الناس في حديثهم للحثّ على عدم المنِّ[2].

خرجت الآيةُ مخرج المثل للحثّ على عدم المنِّ

بلاغةُ الابتداءِ بالنَّكرةِ الموصُوفةِ:

قال العمادي: "صحّ الابتداءُ بالنكرة في الأول لاختصاصها بالوصف وفي الثاني بالعطف أو بالصفة المقدرة، أي: ومغفرة كائنةٌ من المسؤول"[3].

ابتدأَتِ الآيةُ بـ: ﴿*قَوْلٌ﴾، وهو نكرةٌ، اكتَسَبَ نَوْعَ تعريفٍ بالصِّفةِ: ﴿مَّعْرُوفٌ﴾، فجَمَعَ بين معنَيَيْن مختلِفَيْن، وهما النَّكارة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.
(2) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/134.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.

الابتداء بالنكرة لتوجيه الأنظارِ إلى ضـرورة العناية بصفة القول، كالعناية بالصَّدَقة

والتَّعريف: أمَّا النَّكارةُ؛ فذاتيَّةٌ، وأمَّا التَّعريف؛ فبالصِّفة، فتعريفُ القولِ متوقِّفٌ على استحضار صفته، وبدونها فلا معنى له، وعليه؛ فإنَّ المقصودَ الصِّفةُ لا ذاتُ القول، وما القولُ إلا وسيلةٌ موصِلة لصفته، غايتُها إرضاءُ السَّائل، وتطريةُ نفسِه عند الامتناعِ عنِ العطاء، والقول المُجرَّد لا يُرضي سائلًا، ولا يُسمع صُمًّا، وتظهرُ بلاغةُ هذا الأسلوب في توجيه الأنظار إلى ضرورة العنايةِ بصفة القولِ، كالعناية بالصَّدَقة.

فائدةُ تنكيرِ القولِ:

وجه تنكير القول التقليلُ

أفاد تنكيرُ ﴿*قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ التَّقْلِيل، أيْ: أَقَلُّ قَوْلٍ مَعْرُوفٍ[1] ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾، ولو عرَّفه، فقال: القول المعروفُ؛ لفُهِم أنَّ المطلوبَ هو نوعٌ من القول، وفي ذلك كُلفةٌ، فنكَّر للتَّخفيف من وطأة الاعتذار، والاكتفاء بأيِّ قولٍ يراه النَّاسُ معروفًا.

أثرُ المفاضلةِ في استنباطِ المعاني:

أبرزتِ المفاضلَةُ بين القولِ المعروف والصَّدقة المتبوعةِ بالأذى تشريفَ القول وتعظيمَ حالِه، فإنَّ الكلامَ لا يفضُلُ المالَ، لكنْ لمَّا اتَّصف بالمعروف، وفُضِّل على الصَّدقة المتبوعة بالأذى؛ اكتسب معنى التَّشريف، وهو مستفادٌ من السِّياق التَّقابليّ. ولذلك قُدِّمَ القولُ على الصدقة ههنا.

أبرزتِ المفاضلَةُ بين القولِ والصَّدقة المتبوعةِ بالأذى تشريفَ القول وتعظيمَ حالِه

اختصاصُ الأذى بالذِّكر دون المنِّ:

هو من باب التَّنبيه بالأدنى على الأعلى، إذِ المنُّ أشدُّ وقعًا من عموم الأذى

لسائلٍ أنْ يسألَ عن سرِّ اختصاصِ الأذى بالذِّكر دون المنِّ في هذه الآية، مع النَّصِّ عليهما سباقًا ولِحاقًا؟ وجواب ذلك يكْمُنُ في تدبُّر ما جاءَت عليه الآية، فقد أتَتْ مفصولةً استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّ سائلًا سألَ: ما حالُ من يُتبع صدقتَه منًّا وأذًى، فكان الجواب: ﴿*قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾، أيْ: إذا كان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/47.

قولٌ معروفٌ خيرًا من صدقةٍ يتبعُها أذًى، فكيف بالصَّدقة التي يتبعُها منٌّ وأذًى؟ فهي من باب التَّنبيه بالأدنى على الأعلى، إذِ المنُّ أشدُّ وقعًا من عموم الأذى.

بَلاغَةُ الفاصِلَة:

الـجـمـعُ بين الـتَّـشـريـعِ والتَّربيةِ بتنزيلِ الفاصِلَة منزِلَةَ اختزالِ القاعِدَة

خُتمت الآيةُ بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ لاختزال القاعدة الأفضلية بين القول المعروف والصَّدقة المتبوعة بالمنِّ والأذى، وهي جملةٌ مستقلَّةٌ بذاتها، ترجمتها: واعلموا أنَّ الله ﴿غَنِيٌّ﴾ عن صدقاتِكم، فيكفيكم قولٌ معروفٌ ومغفرة، ﴿حَلِيمٌ﴾ بكم؛ إنْ بَخِلْتُم بأموالِكم، فنُزِّلت الفاصلةُ منْزِلةَ اخْتِزالِ القاعِدَة، فجَمَعتْ بين التَّربية الرُّوحية بالأسماء الحسنى، والتَّشريع بالقاعدة المذكورة، وهذا من خصائص البلاغة القرآنيّة في كشفِها عن خصائص التَّشريع القرآنيّ الجامعِ بين الجانبِ الرُّوحيّ، والبُعد التَّشريعيّ.

جملة الفاصلة تذييلٌ لما قبلَها مشتمِلٌ على الوعد والوعيد مقرِّرٌ لاعتبار الخيرية بالنسبة إلى السائل قطعاً

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾، أي: لا يُحوِجُ الفقراءَ إلى تحمل مؤنةِ المنِّ والأذى ويرزقُهم من جهةٍ أخرى. وقوله: ﴿حَلِيمٌ﴾، أي: لا يعاجل أصحابَ المن والأذى بالعقوبة لا أنهم لا يستحقونها بسببهما، والجملةُ تذييلٌ لما قبلَها مشتمِلٌ على الوعد والوعيد مقرِّرٌ لاعتبار الخيرية بالنسبة إلى السائل قطعًا[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَوْف والخَشْية:

الخوفُ ذعرٌ[2] يصيب الإنسان بسبب توقُّع المكروه[3]، ويختصُّ الخوفُ بأنّه من شَيْءٍ مخوفٍ منه إجمالًا، بخلاف الخشية؛ فهي لأمرٍ مخشيٍّ منه عن علمٍ تفصيليّ، كما أنَّ الخاشي يستحضرُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خوف).
(3) الراغب، المفردات: (خوف).

المخشيَّ منه، فالخشيةُ أعلى رتبةً من الخوف، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28]، وفي قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: 16]، نجد أنَّ السياق يتحدث عن العُبَّاد، ودرجتهم دون درجة العلماء، وعلمهم دون علمهم؛ لذلك آثَرَ ذِكْرَ لفظ الخوف دون الخشية، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾﴾ [عبس: 8-9]، فذكر الخشية؛ لبيان استحضار ذلكم الصحابي خشيته من الله تعالى وقت سعيه للنبي ﷺ، وهو ما زاد من درجة عتاب النبيّ ﷺ في شأنه، وكذلك قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: 33]، فإنَّ مدح أصحاب الجنَّة كان لبلوغهم مقامَ الإحسان والتقوى، وقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البيّنة: 8]، فهو كذلك بيانٌ لأصحاب مقام الإحسان.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: 50]، فإنَّه حديثٌ عن الملائكة، والملائكةُ لا تجري عليهم مقاماتُ عبادةِ المكلَّفين، والدَّليل: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾، فخوفُ الملائكة ليس كخوف البشر، وهذا لا يَنْفي التَّفاضلَ بَيْنَهم.

وقد اجتمع لفظا الخشية والخوف في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد: 21]، فالخشية هنا من الله تعالى التي هي خشيةُ المحسنين، وسببُ إيراد الخَوْف من سُوء الحساب هو المقابلة، فلا تستوي الخشية من الله تعالى مع الخوف من سوء الحساب؛ ليُقال: ويخشَوْن سُوءَ الحساب؛ لأنَّ ذلك يعني ضمنًا التَّسويةَ بين الله تعالى وسوءِ حسابه، وهذا غيرُ مُتصوَّر.

واجتمع اللفظان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: 77]، فخوفُ موسى عليه السلام كان من دَرَكِ فرعونَ وجنودِه، والخشيةُ ما استحضرَه موسى عليه السلام من الغرَق في البحر، وهي تكشفُ عمَّا يجول في نفسه عليه السلام، وهذا يبيِّنُ لنا أنَّ الخوفَ كان محدَّدًا من دَرَك فرعون، بينما الخشيةُ كانت عامةً؛ لذلك حُذِفَ مفعولُها، كأنّه قال: لا تخافُ دَرَكًا، ولا تَخشَى غَرَقًا.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ

خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: 31]؛ فالمقصود منه: لا تقتلوا أولادَكم، وأنتم تستحضرون الإملاقَ، وما ينشأ عنه من سُوءِ الحال، فإنَّ هذا الاستحضارَ مذمومٌ، ومنِ استحضر صفةَ الله الرزَّاق، لم يَعْبَأ بالإملاق وتوابعه.

ومثله استحضارُ المؤمنِ الوقوعَ في الإثم: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء: 25]؛ لذا فقد نبَّه الراغبُ على ذلك بأنَّه لمن خافَ خوفًا اقتضاه معرفته بذلك من نفسه[1]، أي: لكثرة التَّفكير في الخوف من الوقوع في إثم الفاحشة، فله أن ينزل رتبة ويتزوَّج من مِلك اليمين المؤمنة؛ لدفع الإثم عن نفسه، وهذا ناشئ عن خشية الله تعالى.

الخَوْف والحُزْن:

يقعُ الخوفُ فيما يُستَقبَل من الزَّمان؛ بسبب ترقُّبِ مكروهٍ، بما يورِثُ قلقًا وضَجَرًا دائمًا لدى الخائف، ممَّا يُنغِّص عليه حياته، ويُضيِّقُ عليه أنفاسَه، ويقعُ الحزنُ على ما مضى من الزَّمان، فالحزنُ ذكرياتٌ مجرورة، في القلبِ محفورةٌ، شأنُها إضعافُ الحزين، وإرهاقُه بالأنين، فهما شعوران يصدران عن القلب، أحدُهما يختصُّ بالماضي، والآخر بالمستقبل، ويتَّفقان في أثرهما الشَّاقّ في سلوك الإنسان وفكره.

(1) الراغب، المفردات: (خوف).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»